

الإتجاه البنائي الوظيفي: ظهر الإتجاه البنائي الوظيفي لدراسة الثقافات الإنسانية مع ظهور نظرية الإنتشار الثقافي في كل من أمريكا وأوروبا كرد فعل عنيف إزاء النزعة التطورية. فهو اتجاه متميز بالأبنية، لا تطوري ولا تاريخي. و في رأيهم أن العلم لايهتم بتاريخ الظاهرة المبحوثة، وإنما يسعى إلى الكشف عن العلاقات بين الظواهر لتحقيق وظائفها، لذلك فالإتجاه الوظيفي يبحث عن كيفية حدوث التغير وأسبابه. وبالتالي فقد تحول التركيز من التطور والإنتشار إلى الدور أو الوظيفة التي تؤديها العناصر الثقافية في علاقتها ببعضها البعض، مع الحفاظ على بقاء واستمرار مكوناتها. ومن أهم رو اده مالينوفسكي، "راد كليف براون"، وآخرون ممن درسوا البناء والوظيفة داخل نسق متكامل يعمل على تحقيق التوازن الإجتماعي. إن الوظيفة كختيار أنثروبولوجي، ترتبط بدرجة كبيرة باسم مالينوفسكي، الذي يوضح بأن الثقافة هي بمثابة نسق متكامل ومتضامن العناصر، فهو يهتم بالوظائف والأدوار التي تقوم بها العناصر المكونة للنسق. لأجل ذلك فقد ركز اهتماماته البحثية في دور المؤسسات الإجتماعية وكيف تؤدي وظائفها من أجل ضمان بقاءها واستمرارها.¹

وتعتبر الإتجاهات الوظيفية تعبيراً عن استخدام المماثلة بين المجتمعات الإنسانية والكانتات البشرية، من خلال الأدوار المختلفة التي تؤديها العناصر المكونة للنسق الإجتماعي، وأن الغاية من وراء هذه الأدوار هو العمل على إشباع الحاجات المتنوعة والمتزايدة للنسق في ظل التحولات والمتطلبات المتزايدة. فالنظرية الوظيفية تركز على مصطلح الحاجة لتحقيق الإستقرار والتوازن والإبتعاد عن كل أشكال الصراع الذي تعتبره هذه النظرية حالات مرضية. لذلك فإن غاية الوظيفيين من وراء إشباع حاجات النسق هي تحقيق المنفعة. فهم يركزون على كل أنماط السلوك الإنساني من خلال فهم السمات والعناصر الثقافية ودورها في إشباع الحاجات الأساسية. وبتعبير أدق، فإن الوظيفة تبحث عن الإرتباط المتداخل بين الظواهر الثقافية. وتشير الوظيفية كنظرية في الأنثروبولوجيا، إلى قياس التمثيل العضوي تماشياً مع فكرة أن الأنساق الإجتماعية ماهي إلا نوعاً من الكائن الحي، تسهم بالضرورة في المحافظة عليه لضمان بقاءه واستمراره في إطار مجموعة حاجات ووظائف أو أدوار. وهذا ما يقودنا للحديث عن الحاجات الإجتماعية عند راد كليف براون، والمرتبطة بإشباع الشروط البيولوجية، حتى يتجنب النسق المعاناة من عدم التكامل أو الإصابة بالخلل أو إحداث التغيير.²

ويشكل الجسم جملة من الأعضاء التي لا يمكن فهمها إلا من خلال نشاطها الوظيفي ودورها في الجسم الكل المركب، وهذا يعني الإلتزام بالتشريح الإجتماعي في فهم مكونات الحضارة ورصد العلاقات الثقافية

¹ - فوزية زنفوني، مطبوعة بيداغوجية في مقياس مدخل إلى الأنثروبولوجيا. قسم العلوم الاجتماعية، جامعة 8 ماي 1945، قالمة، الجزائر، 2021-2022، ص 85.

² - محمد الخطيب، الأنثروبولوجيا الإجتماعية. ط2، منشورات دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق-سوريا، 2008م، ص52، ص53.

وهذا ما يعرف بالأنثروبولوجيا الميدانية، أي دراسة التركيب وبحث النشاط الوظيفي للعناصر المركبة وهي أفضل طريقة عند الوظيفيين لفهم الإنسان والحضارة دون التعمق في التطور أو الانتشار، بل التركيز يكون موجها نحو دراسة البنية في واقعها مثلما يدرس جسم الإنسان. إذ لا يمكن فهم وظيفة أي عضو إلا في ضوء علاقته بكل أعضاء الجسم، لأن النظام الاجتماعي والثقافي ما هو إلا عبارة عن بنية من العناصر ونسق من العالقات الوظيفية. والميدان هو السبيل الوحيد لمعرفة تلك البنيات الوظيفية.³

ومهما يكن من توفيق هذه النظرية في وضع الأنثروبولوجيا على متن البحث عن التنظير والمنهج العلمي، إلا أنها تعرضت كتوجه إنجليزي للعديد من الانتقادات الأوروبية، بسبب تهميشها للجانب التاريخي والتطوري من الحضارة وحتى الجانب النفسي، وحصرت فقط النشاط الإنساني والحضارة في مجمل التفاعلات والتركيبات داخل الجماعات الصغيرة المتيسرة للبحث الميداني، مما يصعب التوصل إلى قوانين تفسيرية عامة. الأمر الذي انتبه إليه الوظيفيون لإعادة النظر في مفهوم الوظيفية والانفتاح أكثر والإهتمام بالمدخل التاريخي كما هو الحال عند "إيفانز برتشارد".⁴

أ- **مالينوفسكي (Branislaw Malinowski 6829-6992)** أنثروبولوجي إنجليزي من أصل بولوني، إسهاماته معارضة للفكر التطوري والانتشاري، فهو يتخذ موقفا مناهضا للتاريخ، الذي اعتبره افتراضيا أو تخمينيا لدى الإتجاه التطوري والانتشاري و اللذان يفتقران للتأسيس العلمي والمصادقية . اعتمد كثيرا على الملاحظة بالمشاركة، من خلال اندماجه الكلي مع المجتمعات موضوع الدراسة و البحث، حيث تقاسم الحياة اليومية ملاحظا كل السلوكات الأفعال بنظرة دقيقة فاحصة لكل الممارسات الفعلية و مراقبا لكل التفاصيل الدقيقة. لهذا فقد كان مبدعا في تطبيق منهجية صارمة لفهم أدق القضايا.

إن تقنيته المنهجية للملاحظة بالمشاركة، قد ساعدته في الإحتلال الداخلي للمؤسسات الاجتماعية بكل أدق تفاصيلها، بعيدا عن الإفتراض أو التخمين. حيث توصل إلى أن لكل المؤسسات عالقة وظيفية اجتماعية تنطوي عل حاجات بيولوجية.⁵

ولقد مكنته الملاحظة بالمشاركة من تعلم لغة السكان وأنماط معيشتهم، مما ساعده ذلك على التعمق في فهم ثقافتهم وتحليل مكوناتها والربط بينها. فكان يقضي معظم أوقاته في التأليف وكتابة المقالات عن تجاربه الميدانية وما توصل إليه من نتائج بالوصف والتحليل لمختلف الأحوال الإقتصادية وأشكال العلاقات الاجتماعية من نظم زواج وعلاقات قرابة .

³- فوزية زنفوي، مرجع سابق الذكر، ص 86.

⁴- المرجع نفسه، ص 86.

⁵- المرجع نفسه، ص 87.

ويؤكد مالفينوفسكي، أنه لا يمكن الوصول إلى تحقيق فهم عميق ودراسة دقيقة وشاملة لثقافة المجتمعات، ما لم يتم الإحتكاك والإتصال والمعاشرة اليومية للسكان موضوع البحث. كما يحرص على ضرورة الإندماج الكلي في حياتهم، لملاحظة كل النشاطات اليومية ومتابعة كل التفاصيل الدقيقة لسلوكياتهم وتصرفاتهم. لذلك فهو يوصي بضرورة تعلم لغة مجتمع الدراسة، نظرا للعلاقة الوثيقة بين اللغة والثقافة. فالباحث لا يقف موقف المشاهد عن بعد، وإنما يلجأ إلى المشاركة الفعلية لكل العادات والتقاليد والمعتقدات الدينية والمناسبات المتعددة، والتي تشكل جوهرها أساسيا في فهم مكونات العناصر الثقافية وكيفية تأدية أدوارها أو وظائفها، خاصة تلك المتعلقة بالمعاني الرمزية المتضمنة سلوكيات مميزة ومحددة بكل مجال، وهذا لا يتم إلا من خلال الملاحظة بالمشاركة.⁶

فهذا الحقل الميداني المخصص للفهم الدقيق لثقافة الشعوب، هدفه هو فهم نظم ومؤسسات المجتمع المراد دراستها من طرف عالم الانثروبولوجيا.

ويصل مالفينوفسكي إلى تحديد معنى الثقافة في كل ما يحتويه المجتمع من عقائد ومبادئ وأدوات تشكل الجهاز الكلي للإنسان، الذي يجد نفسه مجبرا على التكيف معه وتحقيق حاجاته الضرورية للمحافظة على بقاءه واستمراره. فالحاجات الضرورية مثل، الأكل والشرب....إلخ، هي العناصر الثقافية الأساسية لكل مجتمع، والتي تختلف حسب الظروف الوظيفية. ويتمثل الدور الوظيفي لهذه الحاجات في ضمان استمرار المجتمع، وذلك بفضل الأدوار الوظيفية للعناصر الثقافية داخل النسق الاجتماعي.⁷

لأجل ذلك ترتبط الثقافة بكل جوانبها المادية والروحية بالإحتياجات الإنسانية، و تأسيسا على ذلك، يعتقد مالفينوفسكي أن الحاجات الفردية تقابلها استجابات حضارية كمؤسسات ذات وجود واقعي في المجتمع. فمثال نجد التكاثر كحاجة فردية، يقابلها نظام الحماية كاستجابة حضارية، الحاجة إلى الأمان يقابلها نظام الحماية كاستجابة حضارية... وهكذا. كما أن المستلزمات التكنولوجية المنتجة مثل الأدوات والسلع، تقابلها هي الأخرى استجابات حضارية تتمثل في تشييد الحضارة للنظام الاقتصادي.⁸

ب- راد كليف براون (1881-1955Brown Cliff Rad م) تحصل بفضل شهرته الواسعة على عدد كبير من التكريمات الاكاديمية والمهنية، منها رئاسة المؤسسة الملكية للأنثروبولوجيا وجمعية

⁶- المرجع نفسه، ص 87.

⁷- علي عبد الله الجباوي، علم خصائص الشعوب- علم الأقسام-. التلويح للتأليف والترجمة والنشر، دمشق- سوريا، 2007، ص.349، ص350.

⁸- محمد رياض، الإنسان- دراسة في النوع والحضارة- ط2، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، 1974م، ص.275.

الأنثروبولوجيين الإجتماعيين البريطانيين. ومنذ وفاة مالينوفسكي سنة 1942م، أصبح راد كليف براون عميدا للأنثروبولوجيا البريطانية.⁹

ساعدت إسهاماته العلمية في بلورة وتدعيم الفكر البنائي وفي توجيه الإثنولوجيا نحو الدراسات المتزامنة، وكغيره من البنائيين الوظيفيين، فقد ابتعد عن التاريخ التخميني والتيارات التطورية، لذلك كان توجهه الرئيسي منصبا حول دراسة المجتمع وتفسير الظواهر الإجتماعية تفسيرا اجتماعيا بنائيا وظيفيا. وما ساعده في توسيع أفكاره، كتابات "إميل دوركايم" حول تطبيق الوظيفة على المجتمعات الإنسانية وأهمية المماثلة بين الحياة الإجتماعية والحياة العضوية .

وعلى أساس هذه الأفكار، بنى "راد كليف براون" تصوراته لكيفية تطبيق هذه المماثلة، حيث اعتقد بأن المجتمع يشمل تركيبا أو بناء اجتماعيا يتكون من أفراد متماسكين بعلاقات اجتماعية مقررة، مقابلة مع الإنسان ذو التركيب المتكامل، فالحياة الإجتماعية للمجتمع هي المكون الرئيسي للبناء الاجتماعي.¹⁰

شبه راد كليف براون الثقافة بالكائن الحي، فهي تتكون من ذلك الكل المركب من العادات والتقاليد والنظم والمعتقدات والخصائص والسمات، ولكل منها وظيفة يمارسها ويؤديها داخل الكل الثقافي. فالنظرة الوظيفية للثقافة هي بمثابة دراسة تشرحية لثقافة قائمة على الموازنة والمقارنة بين مختلف الوظائف داخل النظم الثقافية.¹¹

لقد اهتم "راد كليف براون" بمكانة ودور الثقافة والعناصر الثقافية داخل البناء الاجتماعي وتأثير ذلك على الإستقرار والتوازن الاجتماعي، فاستمرار البناء مرتبط بالأدوار والوظائف، وتقابله الثقافة كمسؤولة بصفة شاملة وبكلية متكاملة عن بقاء المجتمع .

وعليه، تنحصر أفكار "راد كليف براون" بين طرحين علميين أساسيين، أحدهما التنظير الدوركايمي، والآخر إسهامات مالينوفسكي، مستخلصا مقوماته المنهجية المرتكزة على البناء الواقعي أو الفعلي، وقد أسس ذلك من خلال دراساته الميدانية المعتمدة على الملاحظة العلمية الدقيقة والمشاهدة المباشرة لتفاصيل العلاقات الجزئية الواقعية. منهجه قائم على استخدام الطرق الإستقرائية بتطبيق المنهج التجريبي واكتشاف القوانين العامة التي تخضع لها الظواهر المدروسة. لذلك، فإن من أهم قواعد المنهج الأنثروبولوجي العلمي عنده، هو ملاحظة الوقائع ومشاهدتها بناء على فرضيات نظرية تفسرها. وارتكازا على هذا الفهم

⁹ - بيار بونت وميشال إيزار، معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا. ترجمة مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، 9001م، ص497.

¹⁰ - حسين فهم، قصة الأنثروبولوجيا- فصول في تاريخ النسان-. عالم المعرفة، العدد، 89 الكويت، 1986م، ص168، ص169.

¹¹ - فوزية زنفوفي، مرجع سابق الذكر، ص 88.

والتفسير، يتم استخدام المنهج المقارن في البحث العلمي بصفة عامة، والدراسات الأنثروبولوجية بصفة خاصة.¹²

وهنا يميز راد كليف براون ويحدد الأنثروبولوجيا الإجتماعية في كونها تختص بدراسة طبيعة المجتمع الإنساني، عن طريق المقارنة المنهجية لمختلف أشكال المجتمعات البشرية والإهتمام بالجوانب البسيطة للمجتمعات البدائية .

و كغيره من البنائين الوظيفيين، فهو يؤكد على التعايش المباشر للجماعات البشرية موضوع الدراسة الإثنوغرافية مع حتمية تعلم لغة الجماعة المبحوثة، لتحصيل دقيق للمعلومات المجمعة وذلك من خلال الإندماج والتكيف مع ذلك الكل المركب للعناصر الثقافية السائدة في أنماط معيشتهم .وتأسيسا على ذلك، فإن راد كليف براون حاول إبراز أهمية الوظيفة كمنهج في فهم العناصر المركبة للكل المركب، اعتبارا أن الوظيفة هي نتيجة للنشاط وتتضمن بالضرورة التركيب الإجتماعي من أجل المحافظة على بقاءه واستمراره، ومن ثم المحافظة على التركيب الحضاري وبفكرة الوحدة الوظيفية.

مقومات التحليل الوظيفي في الأنثروبولوجيا الإجتماعية عند راد كليف براون

-**البناء الإجتماعي:** يتشكل البناء الإجتماعي من جملة العلاقات والتفاعلات الإجتماعية الثقافية المحددة بالمكانة والدور، مثل البناء القرابي والذي حدده راد كليف براون في شكل العلاقات الثنائية التي تنشأ بفعل الروابط القرابية، لذلك فهو يتجسد أكثر في العلاقات الإجتماعية الفعلية. وهذا ما أدى براد كليف براون إلى التمييز بين البناء الواقعي والصورة البنائية. فالبناء الواقعي هو كل ما يخضع للملاحظة المباشرة، ويتميز بالديناميكا والتغير والتجدد مثله مثل الكائنات الحية. بمعنى أنه من خلال العلاقات الإجتماعية، يدخل في المجتمع أعضاء جدد بالميلاد أو الهجرة، ويخرج آخرون بالموت أو الهجرة. ويضيف راد كليف براون في هذه العلاقات الإجتماعية، حالات الطلاق والزواج .

وسياقا على ذلك، يمثل البناء الواقعي حلقة اجتماعية ضرورية في الدراسات الأنثروبولوجية الإجتماعية، نظرا لمرونته وقابليته للتغير والتجدد.¹³

كما يستعمل البناء الإجتماعي للدلالة على عناصر التنظيم الإجتماعي ومجمل العلاقات التي يحتويها بكل تناسقها الداخلي وتناقضاتها، وعليه، فإن فهمنا للبناء الإجتماعي، لا يتحقق إلا بملاحظة العلاقات الإجتماعية التفاعلية التبادلية. وهنا يوضح راد كليف براون أن الدراسات والأبحاث لا يمكنها دراسة البناء الإجتماعي إلا من خلال الأشخاص. فهو يميز بين الأشخاص والأفراد، في كون أن الشخص يحتل مركزا اجتماعيا

¹²- جمال معتوق، الفروع والمدائل النظرية للأنثروبولوجيا. دار الكتاب الحديث، القاهرة- مصر، 2016م، ص 349، ص 350

¹³- المرجع نفسه، ص211، ص212.

يجعل منه قاعدة البناء الاجتماعي، وبالتالي فهو يستمر باستمرار التنظيم الذي ينظم أدوار الأشخاص ويحدد علاقاتهم ببعضهم البعض، أما الفرد في أريه فهو كائن عضوي بيولوجي يكون موضوعا للدراسة فقط . فالبناء الاجتماعي حسب راد كليف براون يستمر بالرغم من وحدته، فهو يماثل تماما استمرار البناء العضوي، لأن الأفراد يتغيرون، لكن يستمر البناء التنظيمي بالرغم من تغير أفراد.

وعلى هذا الأساس، يعد مفهوم البناء الاجتماعي من المفاهيم الأساسية في الدراسات الاجتماعية الحديثة عامة والدراسات الأنثروبولوجية خاصة. حيث يعبر عن مجموعة العلاقات الاجتماعية المتباينة، والتي تتكامل من خلال الأدوار الاجتماعية.¹⁴

واستنادا إلى ما سبق، فقد ركز راد كليف براون بصفة خاصة والوظيفيون بصفة عامة على دراسة المجتمع واعتباره مجموعة أنساق اجتماعية تؤلف البناء الاجتماعي.

- **الوظيفية:** إذا نظرنا إلى المماثلة التي أقامها راد كليف براون بين الوظيفة الاجتماعية للبناء الاجتماعي، وبين الوظيفة الفسيولوجية في البناء العضوي، نجد أن التصور الوظيفي للبناء الاجتماعي مستمدا من التيار العضوي في علم الاجتماع، والذي تأثر به راد كليف براون من خلال قراءاته النظرية المتعددة لأفكار "هربرت سبنسر" و"إميل دور كايم"، فالدور يتحدد في ظل المعنى الذي يعطيه الفاعلون الاجتماعيون داخل الأنساق الاجتماعية. وبالتالي يصبح النسق الاجتماعي متكامل إذا تحقق التوازن في المكانة والدور والأهداف الشخصية المرغوبة وأهداف النسق، وبما أن النسق يتميز بجملة من القيم والمعايير، فهو يضمن من خلالها المحافظة على أنماط التفاعل ومنعها من الانحراف عن حدود النسق. لذلك، فإن وظيفة التكامل ترتبط بوظيفة المحافظة ضمن المعايير ومدى امتثال أفراد النسق لهذه المعايير، علما بأن كل نسق اجتماعي يتكيف مع المحيط .¹⁵

¹⁴- المرجع نفسه، ص 211، ص212، ص215..

¹⁵- أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعي- مدخل لدراسة المجتمع- ج1، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة- مصر، 1965م، ص 25.